**المحاضرة الحادية عشر :**

**أدب الرحـــــــــــــــــــــــــــــــــــــلة في المشـــــــــــــــــــــــــــرق**

**الهدف الخاص**

**الأهداف الإجرائية**

لقد ذهب الرحالة العرب إلى أماكن كثيرة لأسباب شتى، وبعضهم كان يدوِّن رحلته ويصف أدق تفاصيلها ، فيسجلها بأسلوب أدبي ، فنشأ ما يسمى بأدب الرحلة ، فما هو هذا الفن ؟

**أولا : مفهوم أدب الرحلات:**

**:الرحلة لغة :** وردت مادة[ رحل ] وما هو مشتق منها في المعاجم العربية بمعان تحمل معنى الحركة والتنقل، وكذلك بمعنى الوسائل التي تساعد في فعل الحركة ؛ ففي معجم لسان العرب لابن منظور "رحل: الرحل : مركب للبعير والناقة ...قال : والرحالة : سرج من الجلود ليس فيه خشب كانوا يتخذونه للركض الشديد ، ...يقال: رحل الرجل إذا سار، ورجل رحول، وقوم رحل : أي يرتحلون كثيرا، ورجل رحال عالم بذلك مجيد له، ...ويروي عالم الدار و الترحل والارتحال : الانتقال ...والرحلة اسم للارتحال المسير.." [[1]](#footnote-1)

**اصطلاحا:** أدب الرحلة هو "ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلةٍ قام بها إلى أحد البلدان. يعنى أساسا بالرحلات الواقعية ذات المُحددات المكانية والزمانية ، سواء جرت فوق الأرض ، و في أعماق البحار ، أو في السماء ، ولا يعنى أدب الرحلات بالرحلات الخيالية[[2]](#footnote-2)

 وعند العرب هو نوع من أنواع النثر العربي ، وُجد في أدبنا العربي منذ القرن التاسع الميلادي ، و تقوم موضوعاته على الرحلات ، ويُكتب بلغة أدبية خاصّة لها خصائصها التي تميّزها عن التسجيلات الجغرافية التي تتصف بالأسلوب العلمي ، وتبتعد عن الأسلوب الأدبي. وهذا ما يجعل أدب الرحلة منتميا إلى الفنون الأدبية النثرية.

**ثانيا: الصياغة الأدبية لأدب الرحلة :** دوّن الرحالة في مذكراتهم أخباراً ومشاهد وأوصافاً وتعليقات وملاحظات موجزة، ثم عمدوا إلى تهذيبها وصوغها بأسلوب جميل، إما في أوقات الراحة في أثناء السفر، وإما بعد الرجوع من السفر. ويشرع الرحالة المغامر أحياناً في سرد حكاياته وقصصه ومغامراته على الكاتب الذي يصوغها بأسلوبه الجميل، وقد اعتمد الرحَّالة العربي على النظر فيما يكتبه ويرويه، كما اعتمد على السمع، وعلى قراءة ومطالعة الكتب والأخبار

إضافة إلى ما تقدم يعمد الرحّالة إلى تضمين الرحلة بعضاً من آيات القرآن الكريم والأشعار، ويرون في ذلك تأكيداً لكلامهم، كما يشيع في الرحلة الحوار، والمشهد القصصي فيها مستمر، والوصف من أدواتها الرئيسة، ومن أجل إضفاء الحيوية، وإبعاد الملل، وإثارة التشويق لدى القراء، اعتمد كتاب الرحلات على خلط الجد بالهزل، ونثر عناصر الفكاهة في كتبهم.

أوضح ما يميز أسلوب أدب الرحلات : تنوّع الأسلوب من السرد القصصي إلى الحوار إلى الوصف ، وغيره ، فإنّ أبرز ما يميزه هو أسلوب الكتابة القصصي المعتمد على السرد المشوق بما يقدّمه الأديب من متعة ذهنية كبرى ؛ ممّا حدا بالدكتور " شوقي ضيف " إلى اعتبار أدب الرحلة عند العرب : " خير رد على التهمة التي طالما اُتّهم بها الأدب العربي ، تهمة قصوره في فن القصة . "[[3]](#footnote-3) وقد أفاد أدب الرحلة بغنى موضوعاته في صرف أصحابه في غالب الأحيان ، عن اللهو والعبث اللفظي ، والتكلّف في تزويق العبارة ؛ إيثارا للتعبير السهل المؤدي للغرض لنضج تجربة الأديب ، مما يفتقده كثير من الأدباء والمحترفين في عصورنا الأدبية .
فأدب الرحلات يتميّز بوضوح الحس القصصي في سرد الأحداث و اختيارها ، وامتلاك ناصية السرد ، والرواية ، والقدرة على جذب انتباه القارئ وحُسن ختام كل موقف بشكل ممتع ومثير .

**ثالثا :دواعي نشأة أدب الرحلة :**

من أسباب تدوين الرحلات:

- أن يطلب الحاكم من الرحالة تدوين الرحلة، أو يطلب الأصدقاء ذلك.

- قد تكون رغبة الرحالة أنفسهم في إفادة القراء وتثقيفهم بالجديد.

- يكون وصف الرحلة بمثابة مرشد سياحي إذ يهتدي المسافرون بهذه الرحلة المدونة فتكون دليلاً لهم، وكذلك لإبراز مناسك الحج والعمرة، وإعانة المسلمين على معرفة الديار المقدسة وكيفية الوصول إليها والتجول فيها، وللتأريخ للبلدان وحضارتها وشعوبها، وللتعريف بالبلدان الغريبة وأبرز معالمها وعجائبها وعاداتها وتقاليدها.

**رابعا: مضامين أدب الرحلة :** تتعدد مضامين أدب الرحلة تبعا للظروف المصاحبة لعملية التدوين ، وعادة ما نجد الرحالة يبتدئ رحلته بوصف الاستعداد لها ودوافعه إليها ، أما ما يتصل بالرحلة في حد ذاتها فنجد من الرحالة من يشتغل لأجل الإنفاق ،ومن ثم يجد سبيلا لمراقبة الاقتصاد ووصف المراكز التجارية وعمليات التبادل التجاري ،أو وصف الصناعة أو الزراعة.

ولا يخلو هذا الأدب من وصف طبائع الناس في تلك البلدان وأشكالهم وألبستهم وطبقاتهم وانتماءاتهم واللغات التي يتواصلون بها، كما أن الرحالة يهتم بذكر عمران تلك البلدان و مساجدها ومشافيها ومدارسها وعلمائها وأدبائها وغير ذلك .ولأن الرحلة هي انتقال من حيز جغرافي لآخر فكان من الطبيعي أن يصور الرحالة الطبيعة الجديدة بتضاريسها ويصف الطرق التي سلكها والصعوبات التي واجهها .

**خامسا : أهمية أدب الرحلة** :

 على الرغم من أن دوافع السفر تتباين وتختلف من رحالة لآخر ،إلا أن الرحلة في ذاتها لا تخلو من منافع على الفرد وعلى المجتمع ،إذ تؤتي ثمارها الطيبة ،وتجود بمكاسب أدبية وعلمية لا يمكن حصرها . فمن ناحية يعد أدب الرحلة وثيقة تاريخية وجغرافية لمن يرغب في استكشاف المعلومات والحقائق وإرضاء الفضول ،الأمر الذي يجعل قراءة هذا الأدب مفيدة ممتعة .

وعلى صعيد آخر فإن ما تتيحه الرحلة من سعة اطلاع واستزادة من ثقافة الآخر وغير ذلك من فوائد ، كل ذلك يجعل الشخص بعد الرحلة ليس هو ما كان عليه قبلها ،والأمر نفسه ينطبق على قارئ الرحلة ،وفي ذلك يقول " أبو الحسن المسعودي " : " ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسّم عمره على قطع الأقطار ، ووزّع بين أياّمه تقاذف الأسفار ، واستخراج كلّ دقيق من معدنه ، وإثارة كلّ نفيس من مكمنه ." [[4]](#footnote-4)

كما تنجلي القيمة الأدبية للرحلات - فيما يقول د. حسني محمود حسين - فيما تعرضه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب ، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني [[5]](#footnote-5).وهي الفكرة نفسها عند الباحث لطيف زيتوني حين قال إن أهم عنصر في هذا النوع الأدبي هو :" الجهد الذي يبذله أدب الرحلة للمحافظة على الهوية الأدبية ، ورفع مستوى الرحلة إلى الآثار الأدبية ، ونقلها من الشهادة البسيطة إلى الأثر الفني "[[6]](#footnote-6)

**سادسا : أدب الرحلة في المشرق :**

منذ العصر الجاهلي كان للعرب رحلات تجارية إلى الشام والعراق واليمن لكنها لم تدون ،أما في صدر الإسلام وما تلاه من عصور فإن الفتوحات فيها أتاحت بشكل واسع ظهور رحلات تعرف العرب من خلالها على أقاليم وثقافات ونظم جديدة لا عهد لهم بها ،وحتى تسهل مسألة إدارتها وتسيير شؤونها كان لابد من التعرف عليها لضبط شؤونها المالية والإدارية، في البداية اضطلع المؤرخون من أصحاب السير والمغازي بمهمة وصف هذه البلدان وسكانها وأحوالهم وما لبث أن استقل بعض الكتاب بوصف الأقاليم والتعريف بها وبطرقها والمسالك المؤدية إليها ، فكان كتاب (المسالك والممالك )لابن خرداذبة أول كتاب في هذا المجال ، ومعه كتاب (الخراج) لقدامة بن جعفر .

اقترنت الحاجة الإدارية بحاجة دينية اقتضت وصف طرق الحج لتعيين محطات القوافل ومنازل الحجاج بين البلاد والأماكن المقدسة ،ولاشك أن الرحلة في طلب العلم نحو المراكز والحواضر العلمية البعيدة كانت إحدى الأسباب التي هيأت لأدب الرحلة أن يتسع نطاقه ،فضلا عن ذلك نجد الرحلات الاستكشافية ،ومن أقدم ما وصلنا منها رحلة سلام الترجمان الذي أرسله الخليفة العباسي (الواثق بالله) في رحلة استكشافية إلى الصين ليشاهد السد الذي بناه الاسكندر ليحبس قوم يأجوج ومأجوج ،وعادت الرحلة لتقص على الناس أخبار الصين وعجائبها .إضافة إلى رحلة (ابن فضلان) إلى بلاد البلغار لتعليم الناس شرائع الدين الإسلامي .

**سابعا: نماذج من أدب الرحلة في المشرق :**
**رحلات المسعودي (346ه) من خلال كتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر ):**  ولد المسعودي ببابل ،ثم انتقل إلى بغداد وتلقى بها العلوم الشرعية والأدبية ، وما لبث أن عزم على التجوال في البحر الشرقي الكبير بعد أن سحرته حكايات التجار والملاحين عنه ، وفي عام (301ه)غادر متجها نحو بلاد فارس وكرمان وبقي في (اصطخر ) عامين ، ثم يمم شطر الهند ومكث بمومباي نحو سنة ، واتجه بعدها نحو سيلان وبلاد سيمور ، وانضم إلى فريق من التجار في رحلة إلى مدغشقر وزنجبار وعمان ، ورجع بعدها إلى بغداد بعد رحلة استغرقت عشر سنوات .جمع فيها مادة معرفية غزيرة ضمنها كتابه (أخبار الزمان).

وفي عام (314ه) عاوده الحنين إلى التجوال فسافر نحو بحر الخزر(بحر قزوين) فطاف بمدنه، واتجه إلى طبريا وفلسطين ثم عاد لبغداد ليدون ما رآه في رحلته هذه في كتاب آخر ، و لأن المسعودي يبدو غير مكتف بما أنجزه وحققه في ميدان الرحلة فقد آثر عام (330ه) أن يسافر نحو مصر فأنطاكية ومدن الحدود الشامية ثم مضى صوب البصرة وبعدها دمشق ،وأخيرا يستقر به المقام في مصر إلى غاية وفاته.

سماه المستشرق (فون كرامر) هيرودوت العرب في كتابه :تاريخ الثقافة في الشرق .ينظر ص215.

لاحظ المسعودي أن الكتابين السابقين يتسمان بالضخامة لذلك اختصرهما وجمعهما في مؤلف واحد هو كتاب( مروج الذهب ومعادن الجوهر)،ومن أهم خصائص هذا الكتاب أنه مفعم بسرد قصصي جذاب ، مشبع بأساليب تعبيرية أنيقة ،إضافة إلى امتزاج الحقيقة بالخيال والأسطورة .

**2-رحلات المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد الشامي المقدسي)(ت380ه**)من خلال كتابه "**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم":**

ولد هذا الرحالة في القدس خلال القرن الرابع الهجري، حصل المقدسي على ثقافة نوعية، إذ تعلّم في صغره القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، ثم ارتحل إلى العراق وتفقّه على مذهب أبي حنيفة النعمان على يد القاضي أبي الحسن القزويني، وبرع في النحو واللغة ونظم الشعر ، طاف خلالها معظم أرجاء [المشرق](https://www.alaraby.co.uk/%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%85%D9%8A%D9%85%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D9%88%D8%A8%D8%A6%D8%A9-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A7%D8%A8%D8%B9-%D8%A7%D9%84%D9%87%D8%AC%D8%B1%D9%8A) الإسلامي آنذاك.

بدأ المقدسي رحلته من مدينة القدس إلى الحجاز في بداية عام 356 هـ/ 966 م لغاية الحج، ثم طاف العراق والجزيرة والشام ومصر والمغرب وزار أقطار العجم، وبدأها بإقليم المشرق ثم الديلم والرحاب والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند، ويبدو أنه انتهى من رحلته في حدود عام 375 هـ/ 985 م، استناداً إلى ما ذكره في متن الكتاب من أنه أنهى تأليفه في مدينة شيراز عاصمة إقليم فارس، بعد أن أتمّ الأربعين من عمره. استأثرت فلسطين بالغالبية العظمى من حديثه في الكتاب فلم يُكتب في تاريخ الرحلات العربية وغير العربية إلى [فلسطين](https://www.alaraby.co.uk/culture/%D8%B9%D9%84%D9%8A-%D8%AD%D8%B3%D9%8A%D9%86-%D9%82%D9%84%D9%8A%D8%A8%D9%88-%D9%85%D8%B1%D9%83%D8%B2%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B1%D8%B6-%D9%81%D9%8A-%D8%AD%D8%B6%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D8%AA-%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86) أجمل وأكمل ممّا كتب الرحّالة المقدسي البشاري عن بيت المقدس وباقي المدن الفلسطينية، فنصُّه الاستثنائي عن إقليم الشام، المتضمَّن في كتابه الشهير "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، يُعَدُّ وثيقة جغرافية و[تاريخية](https://www.alaraby.co.uk/culture/%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%B1%D9%88%D8%AD%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AE%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A-%D8%AA%D8%AD%D9%82%D9%8A%D9%82-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B9%D9%85%D8%A7%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%A7%D9%85%D9%84%D8%A9) واجتماعية واقتصادية عن حال بلاد الشام عموماً وفلسطين خصوصاً.

1. - **ابن منظور :** لسان العرب ، [↑](#footnote-ref-1)
2. - **عبد الوهاب محمد العمراني** : مشاهدات وانطباعات من الشرق والغرب: رؤية يمنية في أدب الرحلات، دار الخليج ، عمان، دط ،2017 ، ص11 [↑](#footnote-ref-2)
3. - **شوقي ضيف** : الرحلات ،دار المعارف ، القاهرة ، ص6. [↑](#footnote-ref-3)
4. - **المسعودي** : مروج الذهب ، 1/ 06. [↑](#footnote-ref-4)
5. - **حسني محمود حسين :** أدب الرحلة عند العرب ، المكتبة الثقافية ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة، 1976 ،ص 335 [↑](#footnote-ref-5)
6. - **لطيف زيتوني** : السيميولوجيا وأدب الرحلات ، مجلة عالم الفكر ، العدد 3، عدد 24، ص251.
 [↑](#footnote-ref-6)